مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (38) العدد (6)2016
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (38) No. (6) 2016

المرأة في شعر ابن خفاجة

الدكتور عيسى فارس *
رامي عبد الكريم خضر **

(تاريخ الإيداع 11 / 2 / 2016. قبل للنشر في 20 / 11 / 2016)

□ ملخّص □

تتعددُ المنابعُ التي نزعَتْ بابن خفاجة إلى التعلقِ بالمرأةِ، والتي تركَتْ آثارَها البارزةَ في نفسه، مما دفعهُ إلى خوضِ غمارِ تجربةِ الحبِّ بطريقةٍ خاصةٍ، وقد تعالقَتْ تلك المنابع مع بعضها لتكوّن نسيجاً متكاملاً طغَتْ فيه ذاتُ الشاعرِ المفعمةِ بالعاطفة على إرهاصاتِ الواقعِ الخارجيِّ، وهو لمْ يتركْ محيطَه هرباً من الأوضاعِ الاجتماعيةِ والسياسيةِ المتردّيةِ، بل اتّجهَ نحوَ أعماقِ ذاتِهِ ثائراً على تلك الأوضاعِ رافضاً لها، فصوّرفي أثناء رسم لوحاتِهِ الفنيةِ علاقته مع المرأةِ مستوحياً من الطبيعةِ ملامحَ رؤيته النفسيةِ الخاصّةِ لتغدوَ المرأةُ مفهوماً حسياً ومجرّداً في الوقتِ ذاتِهِ راحَ يبثّه أصدقَ العواطفِ وأحرّها. لذلك كان لزوماً أن نتعرفَ على العواملِ التي شكلت بواعثَ تجربته مع المرأةِ وإشكاليةِ وجودها في شعرِهِ، وفيحياته .

وتجربةُ ابن خفاجةَ الغزليةِ وعلاقتهِ بالمرأةِ تعودُ إلى عواملَ متصلة بالظروفِ السياسيةِ والاجتماعيةِ التي ميزتْ عصرَه، وأخرى ذاتيةٍ متعلقةٍ بشخصيته المتميزةِ، وقد ساعدتْ هذه العواملُ على تشكيلِ هذه التجربةِ لدى الشاعرِ وتطورِها ونضجِها.

الكلمات المفتاحية : الرغبة– تعدد النساء– لذة الصبا– المكان الزمان – البحث عن الأمان– مجالس الخمر.

* - أستاذ –قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية .
** - طالب دراسات عليا (ماجستير)– قسم اللغة العربية– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة تشرين– اللاذقية – سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (38) العدد (6)2016
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (38) No. (6) 2016

Women's feltibnkhafaja

Dr. Issa Ibrahim Fares*
Rami Abd al karemkdr**

(Received 11 / 2 / 2016. Accepted 20 / 11 / 2016)

□ ABSTRACT □

Many sources have urged IbnKhafajah to be so keen on woman, which had so clear impact on his soul, and this has led him to experience love in a distinctive manner. Those factors have overlapped with each other to form an integrated fabric, Which has been overwhelmed by the poet's passionate soul against the harbingers external reality. He hasn't left his surroundings to escape the deteriorated political and social conditions. However, he turned toward the depth of his soul, rebelling against those conditions and refusing them. Throughout his artistic pictures, he has drawn his relation with woman taking from nature his own distinctive psychological view. Therefore, woman becomes a sensory and merely concept at the same time. He has started to gift it the most sincere and hottest emotions. So, it has been crucial to realise the factors that which have shaped the motives of his own experience with woman and problematic of her existence in in his poetry and his life.

IbnKhafajah's flirtatious experience and his relation with woman are to with factors connected with political and social conditions that have distinguished his era, and others; inner, related to his distinctive personality. These factors have helped to shape this experience for the poet and develop and matur it.

Key words : The desire - the multiplicity of women-the thrill of boyhood - space and time-Find Safety - councils wine.

*Professor - Department of Arabic Language-Faculty of Arts and Humanities Tishreen University-Lattakia-Syria.
**Postgraduate student -Department of Arabic Language-Faculty of Arts and Humanities -Tishreen University-Lattakia-Syria.

مقدّمة .

أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة450–533هـ/ 1058– 1138م " إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة، وكنيته أبو إسحاق ،المعروف بابن خفاجة." [1] هكذا جاء نسبه عند معظم من ترجم له، وعلى الرغم من ذلك فقد جاء في بعض الروايات أنَّ اسم جده هو عبيد الله ." [2] ولد ابن خفاجة سنة 451هـ في جزيرة شقر، بلدة من أعمال بلنسية في شرقي الأندلس وذكر بعض المؤرخين أنَّ ولادته كانت سنة 450هـ " وقد أشار ابن خفاجة إشارة عابرة إلى مراحل حياته منذ شبابه حتى شيخوخته في مقدمة ديوانه، وفصّلها شوقي ضيف تفصيلاً لم نجده عند غيره من المحدثين."[3] وقد قسّم شوقي ضيف مراحل حياة ابن خفاجة إلى أربع مراحل، كان أولها مرحلة الشباب حيث تثقف ابن خفاجة بالعلوم الدينية والعربية، وعاش اللهو والمرح، ثم فترة انقطاع طويلة عن الشعر، بدأت بسقوط طليطلة على يد الإسبان 478هـ ، وانتهت بانتهاء عصر الملوك والطوائف، والمرحلة الثالثة فهي عودة الشاعر إلى قول الشعر بعد دخول المرابطين لإنقاذ الأندلس، ويرجّح أحد الباحثين أن تكون سنة 495هـ هي السنة التي استعاد فيها المرابطون بلنسية، فرجع ابن خفاجة إلى الأندلس بعد فراقه لها مدة كانت نحو عشر سنوات "[4] وفي المرحلة الرابعة ، انصرف إلى الزهد وترك اللهو عندما بلغ الستين. ويروي ابن خاقان حديثاً عن ابن خفاجة " أخبرني أنه لما أقلع عن صبوته واطلع ثنيه سلوه، والكهولة قد حنّكته وأسلكته عن طريق الارعواء حيث أسلته، نام فرأى أنه مستيقظ ، وجعل يفكّر بما مرَّ من شبابه وفيمن ذهب من أحبابه، ويبكي على أيام لهوه وأوان غفلته وسهوه، ويتوجّع لسالف ذلك الزمان ، ويُتبع الذكر دمعاً كواهي الجمان".[5]

تلقى ابن خفاجة التعليم الديني في الأندلس من كبار علماء الحديث مثل القاضي أبي علي حسين بن محمد الصدفي، وعلماء الفقه مثل أبي عمران بن أبي تليد ، والفقيه أبي بكر بن أسد حتى نبغ في الفقه وعلومه وصارت له منزلة عالية عند معاصريه".[6] لذلك نجد أنَّ من ترجم له لقبه بالفقيه ، أمّا أساتذته في الأدب فمنهم ابن صواب ".[7]وتميّزَ شعر ابن خفاجة بالرقةِ والعذوبةِ ، وانسيابِ اللفظِ والمعنى والأناقةِ في توظيفِ المحسناتِ والألوانِ البلاغيةِ المتجانسةِ من استعاراتٍ وتشبيهاتٍ وغيرها. وقد كتبَ ابنُ خفاجةَ في مختلفِ فنونِ الشعرِ من رثاءٍ وغزلٍ ووصفٍ ومديحٍ...، ولكنهُ لم يتكسبْ من شعره بلْ كان عفيفاً في طلبِ العطاءِ. ويغلبُ على شعره وصفُ الطبيعةِ التي توحَّدَ موضوعها في كثير من الأحيانِ بمختلفِ الموضوعاتِ الأخرى، ولكنَّ عبقَ الغزلِ كان الأقوى ظهوراً والأكثر حضوراً ؛ لأنَّهُ شغلَ تفكيره في مختلف مراحلِ حياته .

---

[1]– ابن خاقان،الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان. *قلائد العقيان* ، تحقيق : حسين يوسف خريوش،مكتبة المنارة،عمان، 1989م،ط1، ص739 .

[2]– ابن خاقان، أبو نصر الفتح.*مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس* ،مطبعة السعادة، مصر، 1325هـ، ص31

[3]– ينظر : ضيف ، شوقي . *عصر الدول والإمارات – الأندلس* ، دار المعارف ، القاهرة ،ط2، 1977م، ص317–318.

[4]– بهجت ، منجد مصطفى .*ابن خفاجة الأندلسي والنقد الأدبي* ، كلية الدراسات الإنسانية والعلوم الاجتماعية ، قطر، 1996، مطبعة جامعة ، قطر. العدد19 .

[5]– ابن خاقان . *قلائد العقيان* ،ص 740.

[6]– ابن الآبار . *التكملة لكتاب الصلة* ، د . ت ، ص 186.

[7]– سلامة،محمد علي. *الأدب الأندلسي– تطوره وموضوعاته وأشهر أعلامه* ،الدارالعربية للموسوعات، بيروت– لبنان، ط 1، 1989م، ص333.

أهمية البحث وأهدافه :

يهدفُ البحثُ إلى دراسةِ صورة المرأةِ وتجلياتها ورموزها في شعرِ ابن خفاجةَ دراسةً عميقةً موثقةً بالاستنادِ إلى مداخلَ ورؤى أدبيةٍ ونقديةٍ تمكننا من الوقوفِ على سمات الغزلِ في شـعرِه استناداً إلى معاييرَ واضحةٍ – بعيداً عن الاستطرادِ– معايير تساعدنا في استنطاقِ النصِ الشعريِّ لإظهارِ الأبعاد الجماليةِ والمعاني العميقةِ ضمنَ شـبكةٍ من علاقاتِ المنظومةِ الثقافيةِ والتاريخيةِ والفكريةِ والسياسيةِ التي أسهمتْ في تكوينِ المخزونِ الثقافي والأيديولوجيِّ والعقائديِّ لابنِ خفاجةَ . ويهدفُ البحثُ التعرُّفَ إلى سماتِ تجربةِ الغزلِ الشعريةِ عندِ الشاعرِ في إطاريها الزمانيِّ والمكانيِّ، ودراسةِ الخصائصِ الفنيةِ التي ميّزتْ هذه التجربةَ عن غيرها من أسلوبٍ، ولغةٍ، وإيقاعٍ، وتحليلِ النصِ لمعرفةِ الدوافعِ النفسيةِ الخاصةِ التي حدتْ بالشاعرِ للاهتمام بالمرأة أكثر من غيره .

منهجية البحث :

استند البحث في دراسةِ النصِّ الغزليِّ الخفاجي إلى المنهجِ النفسيّ الذي ينطلقُ بالنصِّ الشعريِّ من دائرتهِ الضيقةِ المرتبطة بذات الشاعر إلى آفاق أوسع باحثاً عن العلاقةِ بين الأدبِ، والتاريخِ والسياسةِ، والبيئةِ، ومختلفِ الظروفِ الأخرى المحيطةِ بالشاعر.فعلى صعيدِ المنحى التاريخيِّ يساعدُ المنهجُ النفسيّ في التعرّفِ إلى سماتِ العصرِ،وأثر البيئةِ الاجتماعيةِ في تكوينِ انطباعاتِ الشاعر حولَ العلاقةِ الاجتماعيةِ التي ربطتهُ بالمرأةِ.والتأويلَ النفسيّ يستكنهُ المظهرَ الفني لذاتِ الشاعر، ويستنطقُ المدلولاتِ التي يؤديها المعنى لكشفِ الرغباتِ الدفينةِ التي رسمتْ ملامحَ الحلمِ عندَ ابنِ خفاجة على شكلِ قصيدةٍ شعريةٍ غزليةٍ.كذلك يدرسُ المنهجُ النفسيّ شكلَ النصِّ اللغويِّ على المستويين الداخلي والخارجي، من خلالِ علاقة المعاني التي تنّظمُ الألفاظَ والتراكيبَ مع بعضها والتي أسهمتْ في رسمِ الإطارِ العامِ للمعنى الذي تمثلهُ المرأةُ في نفس ابنِ خفاجة.

صورة المرأة في شعر ابن خفاجة :

1 – الرغبة الجسدية :

ظلَّ ابن خفاجة حبيس الرغبة في مواصلة المرأة، وهذا الجفاف دفعه إلى إشباع رغبته بصور شعرية طافحة بالمشاعر الجياشة يطغى فيها الوجدان على العقل، والحس على المعنى ، وهو بذلك يحارب الكبت الذي يعيشه مبرزاً رغباته الجنسية لتطغى خارج إطار القيم الاجتماعية والدينية التي لايشعر بالانتماء إليها، وهو بذلك يعبر عن قلق وتوتر نتيجة شهوته العارمة، " فحين تطغى على الإنسان شهوة من شهواته، شهوة مال أو شهوة جنس، أو شهوة قوة أو شهوة سلطان، فذلك اختلال في باطن نفسه لايسعده في التحقيق وإن بدا له في أول الأمر أنه مستمتع، وراضٍ، وسعيد، إنما هو في الواقع في شقوة دائمة لأنهقلق على ما عنده وراغب في المزيد". [1] وابن خفاجة لا يملك وهو في شيخوخته وصال النساء، ولكنه يملك ذلك في مخيلته وفي ذاكرته: قال(من الطويل):

وخِدْرِ فَتَاةٍ قَدْ طَرَقْتُ وإنّمَا أَبَحْتُ بِهِ وِكْرَ الحَمامَةِ للصَّقْرِ

.....

فَسِرْتُ وقَلْب البرقِ يَخفقُ غَيْرَةً هناك وعَيْنُ النّجْمِ تَنْظُرُ عَنْ شَزْرِ

[1]– قصاب، د. عبد اللطيف ياسين .*الجنس والمرأة عبر العصور*، طبعة أولى .دمشق– 2009م – ص 444.

وطَارَ إليها بِي جَنَاحُ صَبابةٍ فَطَارَ بِهَا عَنّي جَناحٌ مِنَ الذُّعْرِ
فقلْتُ رويداً لاتَرَاعِي فَإنّنا لَنَطْوي ضُلُوعَ الليلِ مِنَّا عَلَى سِرِّ
وسَكنّتُ مِنْ نَفْسٍ تَجِيْشُ مروعةٍ ومسّحْتُ عن عطفٍ تمايل مزوَرِّ
ومزّقْتُ جَيبَ الليلِ عنْها وإنّما رفعْتُ جَناحَ النّسرِ عَنْ بَيضةِ الخدرِ
وقبّلْتُ مَابَينَ المُحيّا إلى الطُّلى وعَانقْتُ مابينَ التراقي إلى الخَصْرِ [1]

يصاحب الأرق الشاعر فيمنعه من النوم والراحة، وينطلق لزيارة محبوبته ليلاً باكياً أشواقه وهمومه فالمحبوبة هي المتكأ الذي يهدئ روعه، وهي الملاذ الآمن من الخوف، وشوق الشاعر إلى مواصلة النساء يحمله إلى السفر بعيداً في الزمن إلى أيام الصبا، والشباب، واللهو مع النساء، فيتخيل نفسه في تلك الليلة التي زار فيها محبوبته وقضى منها الوطر.ويسيطر الحلم على ذهن ابن خفاجة، ويمهّد للأحداث اللاحقة التي سردها، وهذا الحلم الذي يسيطر على ذهن ابن خفاجة يموج به في عوالم من الخيال المرتبط بالمرأة يصوره الشاعر بعين الناظر،" إلّا أنه ثمة نوع من الخيال المقيّد بالأشياء ينطلق منها ويبقى في حدودها وفي النهاية نراه وقد أعادها إلى ذاتها، وبينما كانت حدقة ذلك الخيال حدقة نفسية تذيب الأشياء، وتبعثها من جديد، فإن هذه الحدقة هي حدقة بصرية تتصل بالحواس، وتقف عند حدها إنه نوع من الخيال الخارجي الذي يعظّم الأشياء دون أن يبدّل من طبيعتها، أوينفث فيها روحاً".[2]

وابن خفاجة" لا يحبُّ أن يقف كثيراً عند الصور الهادئة، وإنما يميل إلى وصف الذئب، والنار،والنهر المتدفق، وعاصف البرد، والجواد الطائر والكلب الذي يجري وراء الطريدة، والمجلس الصاخب، والشجرة التي تهزها الريح حتى تكاد تقتلعها، والبحر في هياجه، والحيّة وهي تتلوى. وكلها صور تستدعي الانفعال والحركة الشديدة والجيشان.....ويفضّل الشاعر أن يصف البازي، ويؤثر ذلك على وصف الحمامة". [3] ويطلق ابن خفاجة عبراته في قصائده ،مشتكياً ظلم الدهر، متوّحداً مع ماضيه محلّقاً في الخيال مصوّراً علاقاته الغرامية مع فتاة جميلة بيضاء قرب غدير، وقد تركت الشيخوخة أثرها في نفسه قال (من الطويل):

تَشَفّعْ بِعلقٍ للشّبابِ خَطِير وبتْ تحتَ لَيلٍ للوِصَالِ قَصِيرِ
وَنَلْ نَظْرَةً مِنْ نَضرةِ الحسْنِ وانْتَعِشْ بغُرّةِ رقّراقِ الشبابِ غَرِيرِ
فَمَا الأنسُ إلّا في مُجاجِ زجاجةٍ ولا العيشُ إلّا في صَرِيرِ سريرِ
وإنّي وإنْ جِئْتُ المَشِيبَ لَمُولَعٌ بِطِرّةِ ظلٍّ فوق وجه غَدِيرِ
..
وَنَفْحةُ ريحٍ للربيعِ ذَكيةٍ وَلَمْحَةُ وَجْهٍ للشَّبَابِ نَضِيرِ [4]

تتكاثف دلالات النص لتوحي بمستويات جديدة تصوّر شوق ابن خفاجة إلى المرأة (إيحاءات نفسية – إيحاءات اجتماعية – إيحاءات حسية) .

–العتبة الأولى: الشباب الذي يفتقده، ويربطه بقدرته على فعل الوصل، والتمتع بحسن المرأة

–العتبة الثانية :عناصر الطبيعة معادل موضوعي لذات الشاعر، ومعادل للخوف والقلق.

---

[1] – *الديوان* ، تحقيق : السيد غازي ، دار المعارف ، مصر ، الاسكندرية، ط 1، ص 124.

[2] – حاوي ، إيليا.*نماذج في النقد الأدبيوتحليل النصوص* ، دار الكتاب اللبناني،ط :3–1969م، ص126.

[3] – عباس . إحسان . *تاريخ الأدب الأندلسي*، ص 170.

[4] *الديوان* ، ص142 .

–العتبة الثالثة : الصور الحسية في النص تتفاعل جميعها لتكوّن الصورة الكلية للرغبة الحسية الجنسية التي يعيشها ابن خفاجة ويلحُّ عليها، وهو يركّز على الجانب الجمالي لجسد محبوبته. " وفي تركيز الشعراء على الجانب الجمالي الشكلي تضمين مهم يبرر تعلقهم بالمرأة، ويبين سبب هيامهم وفيض عواطفهم الإنسانية الطبيعية التي تدل على توازن النفس البشرية" .[1]ونلمس في النص نزوع ابن خفاجة إلى التحرر المعنوي من فكرة الشيب، والرغبة باللذة الجسدية التي يشتاق إلى إشباعها، والصورتان (مولع بطرّة ظلٍّ فوق وجه غدير)، (ولا العيش إلّا في صرير سريرِ). توحيان بمعانٍ جديدة على مستوى الانفعال المضطرب حيث الانتقال تصاعدياً من الساكن النفسي (مشيب) نحو المنفعل المسيطر القوي الحركي الحسي والمادي (صرير سرير). وهذا التصاعد يصل بالشاعر إلى السعادة التي يطلبها.

1 – تعدد النساء :

يجري ابن خفاجة مجرى غيره من الشعراء في ذكر اسم المرأة . حيث يذكر اسم امرأة اسمها (هند) ويلقبها هنيد.. قال (من البسيط) :

هنيدَ أوجعتِ قَلْباً قَدْ أَقَمْتِ بِهِ مَا بَالُ طَرْفِي ومَا يُدريكِ يبكيكِ
فَربّ لؤلؤِ دَمْع كنْتُ أذخرهُ عِلْقاً أغالي به أرْخصتُهُ فِيكِ [2]

وظيفة النص السردي عند ابن خفاجة البوح عن عاطفة تعانق روحه وجسده، ولكل عنصر في النص دوره في إبراز المشاعر والأحاسيس، وتنوّعُ الألفاظِ بين الرقة والجزالة منحَ صورَ النص تواتراً يبدأ من الصورة الأولى (لؤلؤ دمع أذخره) يفيض دمع الشاعر ولكن هذا الدمع ليس دمعاً عادياً، بل شبهه الشاعر باللؤلؤ الذي لا يبخسُ به إلا لحدثٍ عظيم، وهذا الحدث كان فراق المحبوبة ورحيلها.

وتتعدد أسماء النساء عند ابن خفاجة، فـ (لبنى) أو (لبينى) إحدى النساء اللواتي قضى معهن أجمل أوقاته، وكانت من أكثر النساء قرباً إلى نفسه، وكانت رغبته فيها أشد وأعظم من رغبته في النساء الأخريات،وقد قضى معها أوقاتاً جميلة. قال (من الوافر) :

وَكُنْتُ وَمِنْ لُبانَاتي لُبينى هناك ومِنْ مَراضِعِي المُدَامُ
يُطَالعُنَا الصّبَاحُ ببطن حَزْوى فَينكرُنا وَيَعْرِفُنَا الظّلامُ
وَكَانَ بها البَشَامُ مَرَاحَ أُنْسٍ فَمَاذا بَعْدَنا فَعَلَ البَشَامُ؟
فَيَا شَرْخَ الشّبابِ ألا لِقَاءٌ يُبَلّ بِهِ عَلَى يَأسٍ أوامُ؟!
وَيَا ظِلَّ الشَّبابِ وَكنْتَ تَنْدَى عَلَى أَفْيَاءِ سَرْحتِكِ السَّلامُ [3]

تغلب الصور الخيالية على النص، وهي وإن كانت تعبر عن الفعالية المبدعة لديه إلا أن الصورة غدت أداة رئيسية في التعبير عن المعنى، كما أن الصورة تحدث خصوصية وتأثيراً في نقل الفكرة المجردة التي تجول ذهنه. ويقوم التضاد بين طرفي الصورة بوظيفة إيحائية جديدة تكشف عن معنى جديد،ففي الصورة الأولى يأتي اللقاء ليبعث السعادة والمتعة في نفس الشاعر،بينما يتفاعل معنى الصورة مع حالة التصادم والتضاد في الصورة الثانية لأن فعل (الإنكار) فيه إيحاء برفض المجتمع للقاء سري ليلي، ويأتي (الصباح وفعل التعريف) ليحدث كسراً لمفهوم الإنكار وتجاوزاً يؤكده

[1] – **تجور، د. فاطمة .*المرأة في الشعر الأموي*، منشورات اتحاد الكتاب، 1999، ص 299.**
[2] – ***الديوان* ، ص 197.**
[3] – ***الديوان* ، ص 238.**

(المرح والأنس) فقد استطاع الشاعر أن يتجاوز ضيقه بتذكر ليالي الأنس مع (لبينى)، وإن كان مازال يشعر بالأسف والحزن على أيام الصبا والشباب التي فقدها.

3-التوق إلى لذة الصبا والشباب :

قضى ابن خفاجة لهواً في شبابه،وأمعن في علاقات الحب مع نساء كثيرات، وعاش قصصاً يذكرها في أشعاره، والتقى مرةً بامرأة غريبة ،وعاش معها علاقة حبٍّ يتذكرها في شعره.قال(من الكامل) :

وَغَرِيبَةٍ هَشّتْ إِليَّ غَرِيْرَةٍ فَودَدْتُ لَوْ نج الضِّيَاءُ ظَلامَا
طَرَأَتْ عليَّ مَع المَشِيبِ تَشُوقني شَيخاً كَمَا كَانَتْ تَشُوقُ غلامَا
مَقْبُولةٍ قَبّلتُها مِنْ لَوْعَةٍ نَظَراً يَكُونُ إذا اعْتَبَرْتُ كلامَاً
عَذَرَتْ وَقَدْ أَحْلَلْتُهَا عَنْ نَسوةٍ كِبراً وَأَوْسَعْتُ الزّمَانَ مَلامَا
عَبقَتْ وَقَدْ حَنَّ الرّبِيعُ عَلى النّدى كَرَماً فَأَهْدَاهَا إليَّ سَلامَا [1]

تظهر في النص عناصر القصةكأنها أدوات يوظفها الشاعر للتعبير عما يجول في خاطره.

– الشخصيات : الشاعر – المرأة الغريبة

– الزمان : الشيب ،رمز القحط والجدب، ويأتي الزمن الآخر (الربيع)، وهذا الربيع هو رمز الشباب الذي يمنح الشاعر الشعور بالخصوبة والديمومة. ويخلصه من عجزه.

– المكان: لم يصر الشاعر على ذكر مكان القصة، وربّما أراد أن يترك للمتلقي احتمالات متعددة لاستشراف المكان،ومن الطبيعي أن نتخيل أن اللقاء جرى وسط أجواء الطبيعة الخلابة.

– الحدث: زيارة المرأة الغريبة للشاعر – فعل التقبيل .

– الحوار : تطغى على النص السردية في عرض الحوادث والأفكار،بينما تغيب لغة الحوار، لأن الشاعر صور لوحته الفنية كما يريد هو،وترك لنفسه السيطرة على الفكرة، وعرضها بالطريقة التي تناسب أهواءه ورغباته. وتتكرر زيارة المحبوبة للشاعر، وتطغى لغة العتاب على الحديث الذي يدور بينهما بعد اللقاء.قال(من الطويل) :

لَقَدْ زَارَ مَنْ أَهْوَى عَلَى غَيْر مَوْعِدٍ فَعاينتُ بدرَ التم ذاك التّلاقيا
وعاتبته والعتبُ يحلو حديثه وقد بلغتْ روحي لديه التّراقيا
فلمّا اجتمعنا قلتُ من فرحي به من الشعر بيتاً والدّموع سواقيا [2]

وبما أنَّ وظيفة النص الشعري التعبير عن العواطف والأحلام والأخيلة، فإن وظيفة النص عند ابن خفاجة الربط بين الضمير الشخصي والمفهوم ضمن مستوى القيم والبنى التركيبية في النص. والشاعر يطلب وصال المرأة عاطفياً ونفسياً، ولكن عاطفته تنزاح عن هذه القيمة عندما ترتبط بالمفهوم الحسي الجنسي الذي يؤرقه كونه لم ينجح في إكمال هذا المفهوم طوال سني حياته لأنه لم يتزوج أصلاً،لذا كان سعي ابن خفاجة إلى رسم الواقع وبنائه من جديد لخلق واقع مثالي فيه نوع من الاندماج والتآلف بين المنبوذ المرفوض، والمرغوب المطلوب على كل الأصعدة النفسية، والعاطفية، والاجتماعية.

[1] – *الديوان* ، ص **229**.

[2] – *الديوان* ، ص **271** .

4 - المكان والزمان:

يذكر ابن خفاجة مكاناً واحداً في شعره هو مكان (الصبا والألفة) الذي قال فيه الشاعر قصائد الشوق والحنين إلى المرأة،ويظهر البعد النفسي للمكان من الألفة التي تجذب الشاعر ذلك المكان . حيث الوصال مع المرأة، وحيث الشعور بالأمن والمتعة، بينما ينفّره مكان الغربة، حيث الوحدة والشيخوخة. وهنا يحدث التناقض بين الألفة والغربة، فيظهر ابن خفاجة غريباً في كلّ مكان يخلو من ذكريات علاقاته الغرامية التي عاش أحداثها في صباه،

وتنازع المكان وتجاذبه في نفس الشاعر يمنحه الفرح، ويثير فيه الحزن والألم.لذلك فقد سعى إلى التخلص من سلطة المكان المتجسد في صورة الطلل، ولم يجد ملجأً له إلا الخيال والحلم بعيداً عن الواقع، لذلك جاءت صوره الفنية للمكان مشبعةً بمشاهد الألفة التي تجوب ذاكرته ونفسه. قال (من الطويل) :

لك اللهُ مِنْ بَرْقٍ تَرَاءَى فَسَلّمَا وَصَافَحَ رَسْمَاً بالعذيب وَمَعْلَمَا
إذا مَا تَجَاذَبْنَا الحَدِيْثَ على السُّرَى بَكِيْتُ عَلى حكمِ الهَوَى وَتبسّمَا
وَلَمْ أَعْتَنِقْ بَرْقَ الغمامِ وإنّمَا وَضَعْتُ عَلَى قَلْبِي يَدِيّ تَأَلُّمَا
وَمَا شَاقَنِي إلا حَفِيفُ أَرَاكَةٍ وَسَجْعُ حَمَامٍ بَالغَمِيمِ تَرَنّمَا
وَسَرْحَةُ وادٍ هَزّهَا الشُّوقُ لا الصّبَا وَقَدْ صَدحَ العصفورُ فَجْرَاً فهينمَا
أَطَفْتُ بِهَا أَشْكُو إليها وَتَشْتَكِي وَقَدْ تَرْجَمَ المَكاءُ عَنْهَا فَأَفْهَمَا
تَحنُّ وَدَمْعُ الشّوقِ يَسْجمُ والنّدَى وَقَرَّ بعيني أَنْ تَحِنَّ ويسْجمَا
وَحَسْبُكَ مِنْ صبٍّ بَكَى وَحَمَامَةٍ فَلَمْ يدرِ شَوْقاً أيّمَا الصّبُّ مِنْهمَا [1]

يسيطر على الشاعر قلقٌ وحيرة، وهذا ما دفعه إلى توظيف أسلوب التعجب باحثاً عن ضوء ينقذه من ظلمة نفسية تؤرقه، وتأتي لوحة البرق لتضيء الصورة من خلال المطر الذي يعكس فكرة التطهير من الجفاف النفسي، ولوحة الاستسقاء تذّكر الشاعر بما كان بينه وبين المرأة من تجاذب للحب، حيث كان اللقاء تحت السرح مفعماً بعناصر الجمال الفني من عطور وتغريد عصافير، وهذه اللوحة تتقاطع مع لوحة البكاء حيث يمارس الشاعر طقس البكاء على أطلال عفت " وتطابق المكان مع ذات الشاعر فيما يستحضره من صور لمدركاته الخارجية الماثلة في لوحة الأطلال، والمرتبطة بالتجربة الزمنية، هو ما أدى بالشاعر إلى إشراك المتلقي همومه حين الإصغاء إليه" . [2] ويبكي ابن خفاجة زمان شبابٍ تولّى، وتقوم صور البكاء في شعره بوظيفة الإحياء للقحط النفسي الذي تعكسه صورة الطلل . قال (من الطويل) :

ولمَّا تَرَاءَتْ لِي أَثَافِيُّ منزلٍ أَرَتْنِي محيَّا ذَلكَ الرّبعِ أَهْيمَا
تَرَنّحَ بي لَدْعٌ مِنَ الشّوقِ موجعٌ نَسِيْتُ لَهُ الصّبرَ الجميلَ تَألَّمَا
فَأَسْلَمْتُ قَلْبَاً بَاتَ يَهْفُو بِهِ الهَوَى وَقُلْتُ لِدَمْعِ العِينِ أَنْجِدْ فَأَتْهَمَا
وَخَلَيْتُ دَمْعِي وَالجفون هنيهةً فَأَفْصَحَ سرٌّ مَافغرتُ بِهِ فَمَا
وَعجتُ المَطايَا حَيْثُ هَاجَ بِي الهَوَى فحييّتُ مَابَين الكثيبِ إلى الحمى
وَقبّلتُ رَسْمَ الدّارِ حبّاً لأَهْلِهَا وَمن لَمْ يَجدْ إلا صَعِيداً تَيَمّمَا

---

[1] – *الديوان*، ص 232.

[2] – فيدوح.د.عبد القادر .*الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي*،منشورات اتحاد الكتّاب العربي،1992م.ص245.

وَحنّتْ رِكَابِي والهَوى يَبْعَثُ الهَوى فَلَمْ أرَ فِي تيمَاءَ إلّا متيّما [1]

وهكذا يبكي الشاعر شبابه على أطلال الأحبة، وتتداخل في لوحة الأطلال مجموعة صور،. فصورة البكاء تقوم بوظيفة التخفيف من الحزن، وصورة التيمم تعكس رغبة الشاعر في الخلاص من الشعور بالذنب الذي رافقه في لهوه ومجونه، أمّا الصورة الثالثة التي تشكل محور اللوحة الطللية فهي صورة الرحيل بحثاً عن المحبوبة، حيث شد ركابه يجوب الفيافي ليلاً باحثاً عن أحبته لتغدو النجوم صديقاً يبثه همومه وأحزانه.

وتكثر اللوحات الطللية في شعر ابن خفاجة، ومنها تذكّرهلعلاقته الغرامية مع إحدى الجاريات ."وهي أمة صفراء تسمى عفيراء"[2]يقول من الطويل :

أَرِقْتُ لِذِكْرَى منزلٍ شَطَّ نَازِحِ كلِفْتُ بأنفاسِ الشّمالِ لَهُ شَمّا
فقلْتُ لبرقٍ يَصدعُ اللّيل لامح ألا حيِّ عنّي ذلك الرّبع والرّسما
وَأَبلغ قطين الدّارِ أنّي أحبّهُ على النأي حبّاً لو جزاني به جمّا
وَأَقْرِئْ عفيراء السّلامَ وَقُلْ لَهَا: ألا هَلْ أَرَى ذَاكَ السّها قَمَراً تمّا
وَهَلْ يتثنى ذلكَ الغصنُ نضرةً بجزعي ،وَهَلْ أَلوي مَعَاطَفَهُ ضَمّا
وَمَنْ لِي بِذَاكَ الخَشْفِ مِنْ متقنّصٍ فآكلهُ عَضّاً وَأَشْرَبَهُ شَمّا
وَدُوْنَ الصّبا إِحْدَى وَخَمْسون حِجّةً كَأني وَقَدْ ولّتْ أَرِيْتُ بِهَا حلمَا
فَيَا لَيْتَ طَيْرَ السعدِ يَسنحُبالمنى فَأَحْظَى بهَا سَهْماً وَأَنْأَى بِهَا قسما
وَيَا ليتني كُنْتُ ابنَ عشر وَأربعٍ فَلمْ أدعها بنتاً وَلَمْ تدعني عمّا [3]

تصطدم أحلام ابن خفاجة وتصوراته بواقعه، فقد رسم في خياله رغبة عارمة للقاء جارية فاتنة اسمها (عفيراء) مكتملة المحاسن، فيقرئها السلام ويتمنى وصالها ولكن الواقع يهدم كل أمل بالعودة إلى لقاء تلك الجارية،فقد بلغ من العمر عامه الواحد والخمسين ، وتأتي صورة الفتى (ويا ليتني كنت ابن عشر وأربعٍ) لتفجّر الصراع في نفس الشاعر،والتوق إلى زمن الفحولة والعجز. وتتكرر صورة البرق في شعر ابن خفاجة، وهذا التكرار يؤكّد الرغبة الملحةباستعادة لحظات التنوير والخلاص من الظلام النفسي المتمثل بفقدان الشباب.

5 – البحث عن الأمان :

عاش ابن خفاجة بين عصرين : عصر ملوك الطوائف، وعصر المرابطين،وقد شهدت هذه المرحلة كثيراً من الأحداث التي تعاقبت على الأندلس، فازدادت الأوضاع الاجتماعية تردياً في الأندلس، كما ازدادت تردياً في بلنسية موطن الشاعر، وكثر ظلم السلاطين للرعية. وقد تميز تاريخ الأندلس كله بالحروب، والنزاعات المستمرة على المستوى الداخلي والخارجي، حيث إن حال الاستنفار فيها كانت دائماً متواصلة "وكانت ثغراً من ثغور المسلمين تحتاج إلى يقظة دائمة،وكان أهلها من الشيوخ والشبان والفتيات في حال استعداد دائم ومشاركة مستمرة في حركات الجهاد في أرض العدو أو في الدفاع عن الوطن". [4]

---

[1] – *الديوان* ، ص 233 .

[2] – الشنتريني. أبو الحسن علي بن بسام . *الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة* ، ت: إحسان عباس، دار الثقافة – بيروت، 1997م، ج3، ص 577 .

[3] – *الديوان* ، ص 226.

[4] – الداية، د. محمد رضوان .*في الأدب الأندلسي*،دار الفكر،دمشق ، ط4–2000، ص131 .

وقد أحسَّ ابن خفاجة نتيجة هذه الأوضاع أن الحظ قد فارقه، وتكررت الاعتداءات عليه من قبل رجال السلاطين. وظهر هذا جلياً في قصائده التي بث فيها ما يعتريه من قلق وخوف على حياته وماله، وشكا معاناته إلى الأميرة مريم وزوجها الأمير تميم بن يوسف، وتوّسل إليه مستعطفاً زوجته مريم. قال (من الكامل) :

وَنَزَلْتُ مِنْ خصبٍ بَأَمرعَ منزلٍ وَحَلَلْتُ من أَمنٍ برأسِ يلملمِ
فَلَقَدْ سَكَنْتُ ولليالي جولةٌ كحلْتُ بهبوتها عيونَ الأنجمِ
وَكَفَى احتِمَاءَ مَكَانةٍ وَصِيانةٍ أنّي علقْتُ بِذمّةٍ مِنْ مَريمِ
ذات الأمانة والديانة والتّقى والخلق الأشرف والطريق الأقومِ
ذات الجلالة والجزالة والنّهى والبيت الأرفع والنّصاب الأكرم [1]

ولغة الخطاب في النص توحي بما دار في خلد ابن خفاجة، فهو يسعى للحصول على حماية الأمير تميم، إلا أنه وجد في المرأة (مريم) ملاذاً آمناً وسلامة فربط بين شعوره بالطمأنينة،وبين عهد الأمان الذي تمنحه إياه ذمة مريم، ودفعته مخاوفه إلى حضن دافئ هو المرأة . "فلمّا وقفت الأميرة على ما كتبه الشاعر من شعرٍ ونثرٍ عن معاناته حتى تشفّعت لهعند الأمير تميم الذي بادر بدوره إلى توصية جميع الولاة برعايته في جميع أعماله، ونفّذ العهد بحملانه على أتمَّ وجوه المراعاة والمكارمة والبرّ فيما حقَّ من أحواله " . [2]

وابن خفاجة عاش قرابة الثمانين عاماً لم يتزوج خلالها، وظلَّ حنينه إلى المرأة يجاذب روحه، وقد حاول أن يواري شوقه ذاك تحت عباءة الاستعطاف وطلب الحماية. " ووارى توتراته الحيّة تجاهها في أعماق لا شعوره ولكن هذه التوترات المكبوتة استطاعت في كثير من الأحيان التخلص من سيطرة الشاعر عليها لتطلَّ برأسها في رؤاه وصوره الشعرية معبرة عن اختلاجات النفس، وما يعتمل في أغوار اللاشعور من حنين المرأة وظمأ إلى دفئها " . [3] وكان طلب الحماية متنفساً لتلك التوترات والاختلاجات،ومحاولة لضبط الرغبات اللالاشعورية، وهو وإن كان يطلب الحماية فإنه يعفّ عن التذلل مشيراً إلى مكانته الأدبية والشعرية، مؤكداً على أن صوته سيلقى صدىً إيجابياً من الأمير عندما يطلب الحماية لأنه يستحقها. قال (من الوافر) :

فيا مَلِكَ المُلُوكِ ولِي لسانٌ يُشيرُ بِهِ البنانُ إلى خَطِيبِ
يُفضُّ بكلِّ قافيةٍ ختاماً ويُفعمُ كلَّ نَادٍ ريحَ طَيبِ
دُعَاءٌ لَو دَعوت بِهِ جَمَاداً لَهَزَّ مَعَاطِفَ الغصْنِ الرّطِيبِ
ومثلِي هَزَّ مثلكَ ثمَّ أَصْغَى عَلَى ثِقَةٍ يصِيخُ إلَى مجِيبِ [4]

وخوف ابن خفاجة دفعه إلى البحث عن حضن المرأة، معبّراً عن توتر لأنه يخاف على نفسه ممن حوله فيطلب حماية الأمير، ولكنه في الوقت نفسه يرفض أن يكون ذليلاً، لذلك وجد في المرأة وسيلة، وأداة لتخفيف توتره." وقد ينقل الشاعر ذاته تحت وطأة الانفعال من يقين نفسي إلى يقين آخر ينقضه، ويخالفه، متحولاً من الظلمة إلى النور، ومن أعماق اليأس إلى ذروة الأمل، ومن الاستخزاء والذلِّ إلى الزهو والاعتداد ". [5]

---

[1] – *الديوان*، ص 246.

[2] – *الديوان* ، المقدمة.

[3] – أقدح، حسناء . *التجربة الشعرية عند ابن خفاجة* . أطروحة لنيل شهادة دكتوراه الدولة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس،الرباط، 1998– ص73

[4] – *الديوان* ،ص 48.

[5] – الحاوي،إيليا سليم .*نماذج في النقد الأدبي وتحليل النصوص* ، ص 39.

6 – مجالس اللهو والخمر :

حنين ابن خفاجة إلى المرأة لم يكن منفصلاً عن مجونه الذي عاشه أيام شبابه، وشوقه إلى اللذة المادية الحسية ارتبط بالخمرة، وطقوس معاقرتها بين أحضان الطبيعة الخلابة مع الندمان والخلان.وابن خفاجة عاش حياة هادئة في عصر ملوك الطوائف منقطعاً إلى نفسه لا يتصل بأحداث عصرهولايشارك

فيها إلا من بعيد، كل ما يهمه هو التمتع بشبابه، ومن هنا استولت عليه"روح المرح والمتاع بالحياة، فأقبل على الطبيعة يتنزه في مغانيها،ويتملى من مباهجها، فتمتلئ نفسه بشراً، ويعبّرعنها تعبيراً يفيض حبوراً، ولقد كان لنشأته المترفة، ولجمال بلدته، أثرٌ في تغذية خياله، وتكوين تأملاته" .[1]

وقد أسرف ابن خفاجة في مجونه وتعاطيه للخمر أيام صباه، وباتت لا تفارقه أبداً، كما غدت الخمرة العنصر الأهم في لوحاته الغزلية الماجنة، والتي تجسدت فيها علاقته بالمرأة حتى في أيام كهولته بما تحمله من رموز تعود به إلى الماضي الجميل زمن الشباب، والقدرة الجسدية على تحصيل الرغبات، وإشباع اللذات." ولم تغب مناظر الطبيعة عن صور الشاعر الغزلية، فقد شكلت إطاراً جميلاً لمعظم لوحاته الفنية.وارتبطت بالحب والخمر مشكلة ثالوثاً مقدّساً لديه،يحضرأحد أطرافه، فيتداعى الآخر لما بين الأطراف من علاقة وطيدة وتلازم متين" .[2]وابن خفاجة حاول من خلال مجونه أن يهرب إلى عالم آخر بعيدٍ شأنه شأن شعراء الغزل المشرقيين في العصرين الأموي والعباسي، وأغلب الظنِّ " أن التعويض الذي قصده بهروبه إلى المتعة واللذة في المرأة والخمر كان بديلاً عن رفض المجتمع لسيرته القاصفة، وسلوكه الغريب". [3]

ويوظّفُ ابنُ خفاجة الخمر في شكل جديد من أشكال غزله الحسي بالمرأة، فقد جعل من الخمرة جزءاً من جسد المرأة. وتتعدد وظائف الخمرة، وتشبهياتها عند ابن خفاجة حتى يغدو ريق المحبوبة خمراً يسكره. قال (من الطويل) :

تعلّقتهُ نَشْوَانَ مِنْ خَمْرِ رِيقِهِ ... لَهُ رَشْفُها دوني ولِي دُونَه السّكرُ
تَرقْرقُ مَاءً مقلتاي وَوَجهُهُ ... ويُذْكَى على قَلْبِي ووجنتهِ الجَمْرُ
أرقّ نَسِيبي فيهِ رقّةُ حُسْنِهِ ... فَلمْ أَدرِ أيّ منهما قَبْلَهَا السّحرُ
وَطِبنَا مَعَاً شِعْرَاً وثغرَاً كَأنّمَا ... لَهُ منطقي ثَغْرٌ ولِي ثغرهُ شِعرُ [4]

تختلط الإسقاطات في حضرة الخمرة حتى يغدو ريق المحبوبة خمراً للشاعر يشتهيه بينما لايكتمل إبداع الجلسة إلا بتبادل الحواس، فيندمج الشاعر معنوياً وحسياً في جسد المحبوبة بعدما انتشى من خمرة ريقها، فليس يصحُّ السّكرُ إلا باكتمال حسن المحبوبة، وحضورها الدائم في مجلس أنسه ولهوه ، ويمدُّ ريق المرأة شراب الشاعر بالبرودة التي تسكن نفسه،فينام هانئاً بانتهاء لهوه،كاتماً هواه وشوقه."كذلك فقد فتن ابن خفاجة بالمذكر، وتغزّل به، مجارياً في ذلك العادات السائدة في الربوع الأندلسية، ومنها ظاهرة التغزل بالغلمان، تلك الظاهرة التي انتقلت إلى الأندلس من بعض شعراء المشارقة كأبي نواس ومسلم، وأبي تمام، وابن خفاجة كغيره من شعراء المجون في طور الشباب تغزّل بالمذكر، وكان جلَّ غزله في سياق القصيدة الخمرية لما بين الغزل والخمر من صلة وثيقة، فإذا تعاطى الشاعر الراح تغزّل بمفاتن الساقي، ولطائفه، وأسبغ عليه صفات اعتاد الشعراء أن ينعتوا بها المرأة، ومزج بين المذكر والمؤنث مستخدماً

---

[1]– **الركابي ، جودت .*في الأدب الأندلسي*، دار المعارف في مصر، ط4 ، ص 106.**

[2]– **أقدح، حسناء .*التجربة الشعرية عند ابن خفاجة* ، ص116 .**

[3]– **تجور، د. فاطمة .*المرأة في الشعر الأموي*، ص 302.**

[4]– ***الديوان*، ص 119.**

صيغة المذكر عوضاً عن التأنيث، وهذا المزج جعلنا لا نستطيع تحديد هوية المتغزل به أذكر أم أنثى؟ ".[1]ينطلق الحكم السابق على ابن خفاجة في غزله بالغلمان من مجونه. وقد ربط هذا الحكم استخدامه لصيغة المذكر بانتقال هذه الظاهرة من المشرق إلى الأندلس ولكن ابن خفاجة في أكثر غزلياته الممزوجة بالخمر يظهر واضحاً في غرضه وهو المرأة. ويرسم ابن خفاجة لوحاته الشعرية موظفاً الألفاظ والألوان في نقل تجربته الشعورية.قال (من الطويل):

وبَيضَاءَ فِيْ صَفْرَاءَ تَحْمُلُ نَفْحَةً تَنَفّسَ عَنْهَا المَنْدَلُ الرّطبُ والجمرُ
خلعتُ رِدَاءَ الصّبْرِ فِيهَا عَلاقَةً وَيحسنُ إلّا في هَوى مِثْلَهَا الصّبرُ
وَلا غَرْوَ أَنْتُرْوَى بِهَا عَينُ نَاظِرٍ وبَاطِنُهَا مَاءٌ وظَاهِرُهَا خَمْرُ [2]

يصف الشاعر امرأة بيضاء ترتدي ثوباً أصفر، رائحتها زكية، وهو لم يعد يصبّر على الابتعاد عنها، ثمّ يعمد إلى تشخيص صفات المرأة في الخمر فجعل من الماء الممزوج بالخمر بدناً لتلك المرأة، كما شبه الخمر بالثوب الذي يغطي البدن، وفي هذا التشبيهات تكثيف للمعاني حيث مزج الشاعر بين معنيين :

1-المعنى الأول : مستوحى من صورة المرأة البيضاء ذات الرائحة الطيبة .

2-المعنى الثاني : مستوحى من صورة الخمر الممزوجة بالماء، والتي تحمل رائحة زكية أيضاً لمن يعاقرها، وتتسم هذه المعاني بالصدق العاطفي الذي يسحبه ابن خفاجة على ألفاظه وتراكيبه." وإذا كانت الدلالات الرمزية لكل صورة تختلف عنها في الصورة الأخرى، فيمكننا أن نجمع هذه الصور كلها تحت دلالة رمزية واحدة، هي الإيحاء بمعنى التفوق والقوة". [3] وهي بالنسبة إلى الشاعر ترمز إلى موضوع واحد هو (المرأة).ويبكي الشاعر مستحضراً ألوان الطبيعة في كشف مكنونات نفسه.(قال من الطويل):

أُرَاعِي نجومَ اللّيلِ حبّاً لبدرهِ ولستُ كَمَا ظَنَّ الخليُّ مُنجِّمَا
ومَا راعَني إلّا تبسّمُ شيبةٍ نكرت لها وجْهَ الفتاةِ تَجهُّمَا
...
فَآهٍ طويلاً ثمَّ آهٍ لِكَبْرَةٍ بكيْتُ على عَهْدِ الشّبابِ بِهَا دمَا
وَقَدْ صدئتْ مرآةُ طَرَفِي ومَسْمَعِي فَمَا أجدُ الأشياءَ كالعَهْدِ فِيهمَا
...
كَأنَّ لَمْ يشقني مَبْسمُ الصّبحِ باللّوى ولَمْ أَرْتشفْ مِنْ سدفةٍ دونَهُ لَمَى
...
وَلا سِرْتُ عَنْهَا أَرْكَبُ الصّبحَ أَشْهَبَا وَقَدْ جِئْتُ شَوْقَاً أَرْكَبُ اللّيلَ أَدْهَمَا [4]

تتشعب معاناة ابن خفاجة بين وحدة، ووحشة، وتقدّم في الزمن، واحتدام للرغبات

والشهوات، تلك الرغبات التي لم تمت مع مرور الزمن، ولكنها اختبأت عميقاً داخل نفسه، منتظرة الفرصة المواتية للظهور، وقد سنحت الأيام لها بالظهور ."وغنيٌّ عن البيان أنَّ الرؤية التي يرويها ابن خفاجة عن نفسه تمثّل الصورة (الفرق) الذي كان يجعله مضطرب الرؤيا، وربما كان هذا الاضطراب في الرؤية هو الذي يحمله على تنويع الألوان

---

[1] – أقدح، حسناء .*التجربة الشعرية عند ابن خفاجة* ، ص107.

[2] – *الديوان* ، ص 108.

[3] – كبّابه،د. وحيد صبحي .*الصورة الفنية في شعر الطائيّين بين الانفعال والحس* ، منشورات اتحادالكتّاب العرب،1999م،ص 170.

[4] –*الديوان* ، ص234.

في القصيدة– فالدنيا دائماً– تمثّل له مجموعة من الألوان، وكلّ منها يجذب نظره، وهو متحيّر مترجرج النظرة،حيناً يبصر هذا اللون، وحيناً يبصر ذاك " . [1]لقد وظّف الشاعر كل لون ليوحي بالدفقة الشعورية التي يعيشها، وتدرج الخط الانفعالي في النص بتدرج المعاني والأفكار التي تراود ذهن الشاعر، فنراه قلقاً متوتراً خائفاً من وحدته، حزيناً على فراق المحبوبة، كارهاً الشيخوخة التي منعته الوصال مع المرأة.وهذا ما يرويه عن نفسه في النص السابق، ويدل على ذلك كثرة استخدام ضمير المتكلم .

خاتمة :

شغلت المرأة ابن خفاجة في شبابه وشيخوخته، وظهر ذلك جلياً في شعره، فلجأ إلى صوره الشعرية يبث فيها لواعج نفسه وأحزانه، وهو الذي بقي وحيداً لم، وقد تمكن من إبداع لغة خاصة للتعبير عن عاطفته المتدفقة تجاه المرأة باستخدام الألوان المختلفة في صوره الشعرية، وقد شكلت هذه الألوان ظاهرة بارزة في شعر ابن خفاجة، وكانت تمثل صدى عاطفة الشاعر، وذلك أن دلالة اللون كانت تتغير في صوره تبعاً للسياق، والأثر النفسي، وتبعاً للتغيرات التي مرّ بها في علاقته مع المرأة من أيام الصبا وحتى زمن الشيخوخة، وهذا الحضور اللوني الذي امتزج بصور نفسيته كان يسير بالتوازن مع انتعاش الشباب، من جهة،ومع افتقاده لهذا الشباب من جهة أخرى، ولم تكن دلالات الألوان في صور المرأة لديه ثانوية، بل كانت مرتبطة الارتباط كله بوعيه وإدراكه ورؤيته الفلسفية والنفسية .

المصادر والمراجع :

1 -ابن الآبار . *التكملة لكتاب الصلة* ، د . ت .

2 -أقدح، حسناء .*التجربة الشعرية عند ابن خفاجة* ، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه الدولة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس،الرباط، 1998م.

3 -بهجت . منجد مصطفى . *ابن خفاجة الأندلسي والنقد الأدبي* ، كلية الدراسات الإنسانية والعلوم الاجتماعية، قطر،1996، مطبعة جامعة ، قطر. العدد19 .

4 -تجور، د. فاطمة .*المرأة في الشعر الأموي*، منشورات اتحاد الكتاب، 1999م.

5 -الحاوي ، إيليا سليم .*نماذج في النقد الأدبي وتحليل النصوص*، دار الكتاب اللبناني، ط3، 1996م.

6 -ابن خاقان، أبو نصر الفتح . *مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس* ، مطبعة السعادة، مصر،1325هـ .

7 -ابن خاقان ، الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان . *قلائد العقيان* ، تحقيق : حسين يوسف خربوش، مكتبة المنارة ، عمان ، ط1، 1989م.

8 -ابن خفاجة . *الديوان* ، تحقيق : السيد غازي ، دار المعارف ، مصر ، الاسكندرية، ط1، د.ت.

9 -الداية ، د.محمد رضوان . *تاريخ النقد الأدبي في الأندلس*،مؤسسة الرسالة،ط2، 1981م.

10 -الركابي ، جودت .*في الأدب الأندلسي*، دار المعارف في مصر، ط4، د . ت .

[1]– **عباس ، إحسان . *تاريخ الأدب الأندلسي*، ص 172.**

11 -سلامة ، محمد علي . *الأدب الأندلسي – تطوره وموضوعاته وأشهر أعلامه* ، الدار العربية للموسوعات ، بيروت – لبنان، ط1، 1989م.

12 -الشنتريني، أبو الحسن علي بن بسام ، *الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة* ، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة – بيروت، 1997م .

13 -ضيف ، شوقي . *عصر الدول والإمارات – الأندلس* ، دار المعارف ، القاهرة، ط2، 1977م.

14 -عباس، إحسان. *تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين*، دار الشروق، عُمان، ط1,1997م.

15 -فيدوح، د.عبد القادر. *الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي*، منشورات اتحاد الكتّاب العربي،1992م.

16 -قصاب، د. عبد اللطيف ياسين.*الجنس والمرأة عبر العصور*، دمشق ، ط1، 2009م .

17 -كبّابه. د. وحيد صبحي. *الصورة الفنية في شعر الطائيّين بين الانفعال والحس* ، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، 1999م.